# الدرس الأول

للأستاذ محمد سعيد العريان

« هل كانت « قدرية » فى أوّليّتها تتوقع هذه النهايةَ التى انتهى إليها أمرُها ؟ »

هكذا سألنى صديقى وهو يحدثنى حديثها :

كانت تجلس فى الصف الأخير من حجرة الدراسة ، فقد كانت أطول قامة وأبعد نظراً ؛ فما يشق عليها ولا يعنيها أن تجلس فى الصف الأول أو فى الصف الأخير ؛ على أنها كانت أسبقَ التلميذات جواباً عند الاختبار ، وأكثرهن عناية بالعمل المدرسى ؛ فلا جَرَم كانت بذلك أدنى منزلة إلى قلوب معلميها ومعلماتها . وكانت على إرثٍ من الأدب والفضيلة ، يبدو فى طرْف غضيض ، وصوت خفيض ، ولسان عَذْب التحية عف الخصام ؛ وكانت إلى كل ذلك مليحة رشيقة ، مقبلة ومُدْبرة ! ... وإنى لأعجب لنفسى كيف لم أتبيّن ما فيها من رشاقة وخفة إلا فى تلك الليلة التى كانت ... حين بدأت حوادث هذه القصة ؟ ... على أن المعلم فى مدارس البنات ، قلّما يُعنى بالنظر إلى وجوه تلميذاته ، ولعله لو سُئل الرأىَ فى تفضيل واحدة على واحدة من بناته فى هذا الباب ، لأخطأ الرأى والنظر ، ولكانت أدَمُ الدميات هى عنده الجميلة التى لا تباريها واحدة ولا تقاربها ؛ فإن طول العشرة ودوام المخالطة خليقٌ بأن يلوّن رأيه بلون غير اللون الذى ينظر به كل رجل إلى كل امرأة ؛ ومن ذلك لم يهجس فى نفسى يوماً أن فلانة من تلميذاتى أجملُ أو أدَمُّ من فلانة ؛ وكذلك لم أكتشف ما كان فى « قدرية » من جمال وفتنة إلا فى تلك الليلة ، وإنها لتلميذتى منذ ثلاث سنين !

* * *

كان ذلك فى يوم من أيام الربيع ، وقد تبرّجتْ الدنيا بزينتها وأخذتْ زخرفَها ، ونَضَت الكائناتُ عن سرّ الإبداع المبقرى الذى أودعه فيها الصانع الأعظم !

وكان العام الدراسى فى أخرياته ، وقد نزع المعلّمون أو كادوا مما عليهم من فرائض العلم ، وتأهب التلميذات لواجبهن استعداداً ليوم قريب ...

ورأت المدرسةُ أن تجرى على تقاليدها احتفالاً بانتهاء عام ؛ على أنها رأتْ أن يكون فى حفلتها هذه السنةَ شىءٌ جديد، محاكاة لمدارس أخرى ، ومساهمة فى بعض أعمال البر ؛ فاعتزمت أن يكون احتفالها فى مسرح كبير مشهور ، يُدْعى إليه طائفةٌ من أهل البذْل والمعروف ، لتستعين المدرسة بما تجمع منهم على البر بطائفة من الفقراء ...

هى سنّة جديدة سنّها بعض القائمين على شئون التعليم فجَرَتْ قاعدة ؛ فلِمَ نتخلّفُ نحن وقد سبقتْ إلى هذه السنة الجديدة مدارس ؟

وأعدّت المدرسة برنامجاً حافلاً ، فيه تمثيل ، ورقص ، وموسيقى ؛ وما بدّ أن تجتمع هذه الألوانُ الثلاثة فى كل حفلٍ مدرسى يراد منه أن يظل إراداً يعين على بعض أعمال البر ... وإلا فماذا تقدّم المدرسة من وسائل التسلية ثمناً لما تطلب من أهل البذل والمعروف !

وقالت معلّمةٌ لأخرى : ينبغى أن تكون حفلتنا ...

فقاطعتْها الثانية : نعم ، وستكون أفخمَ ما أقيم من حفلات المدارس فى هذا الموسم ... !

* * *

واختيرت الرواية ، وأستؤجر المسرح الكبير ، ودُعى فنانٌ كبير من أهل الكفاية ... ليدرّب التلميذات على اصطناع شخصيات الرواية، كل واحدة بدورها ، راقصة أو ممثلة !

وطاف المدرّب بالتلميذات فى صفوفهن يختار منهن ذوات الوجوه والأجسام ... الفنية !

واختار « قدرية » لدور ذي خطر ...

وتأبّت الفتاةُ بما فى طبيعتها من الحياء وما فى دمها من إرث أجدادها ؛ وعجب البناتُ أن تأبى قدريةُ وإن كل واحدة منهن لتتمنى ؛ واستمعت قدرية إلى أحاديث البنات صامتة ، ثم ... ثم قبلت فخوراً مزهوة ، وغلبتها غريزة الأنثى النفور على ما فى دمها من إرث الآباء والأجداد !

ووقف المدرّب يلقّنها ويستمع إليها ، ووقفت هى مصغية تستمع إليه وتحاكيه ، تجهر بصوتها حيناً وحيناً تخافت به ؛

وعزفت من مخارج الصوت ما لم تكن تعرف ، ولانت أعطافها بعد خشونة وبيس ، وأحسنتْ أن تدورَ على عقبها ، ثم تنثنى وتنهض، وأجادت تمثيل اللفتة المتكبرة، والنظرة المعابرة، والرَّنْوة الآمرة ، ثم تبكى وتضحك فى وقت معاً ... ...

وقال المدرب الفنان : يا لها من فتاة ! إنها لفنانة موهوبة !

وأطبقت الفتاة جفنيها فى حياء وهى تشكر له ، فبدت فى كلتها وحركتها أبرعَ فناً مما ظن مدربُها ... !

ولم يُمانع أبوها وأمها أن تكون ابنتهما راقصة ممثلة ساعة فى ليلة من ليالى البر ؛ وأين يبدو لهما وجه الاعتراض والمدرسة هى التى اختارتها لذلك ؛ وإن المدرسة لأعرف منهما بما ينبغى وما لا ينبغى ؛ وإن عليها وحدها أن تختار لتلميذاتها من وسائل الرياضة والتثقيف ما يؤهلهن للحياة ... !

وجاءت الليلة الموعودة بعد تدريب طويل وإعداد شاق ... وكان على أبواب المسرح الكبير معلمون ومعلمات لاستقبال المدعوّين ، وغص البهو والشرفات بالآباء والأمهات ، والأصدقاء والصديقات ، و ... والمربين والمربيات ...

وراحت طائفة من التلميذات تجوس خلال الصفوف فى ثياب بديعة ومظهر فاتن ، يبعن الزهر والحلوى مما صنعت أيديهن من قبلُ استعداداً لهذا اليوم ومساهمة فى أعمال البر ...

... وكانت « قدرية » خلف الستارة بين أيدى المواشط يهيئنها للظهور ، وأمامها مرآة كبيرة تريها من نفسها ما لم تكن ترى أو تعرف ، وابتسمتْ ابتسامة الإعجاب والرضا حين رأتْ وعرفت ... !

وخرجتْ إلى المسرح مجلوة ملونة كما لم تبد فى يوم من أيامها، وانسكبت عليها الأشعة من أربعة جوانب المسرح تشبُّ لونها وتزيدها ملاحة وفتنة ، ووقفت متأهّبة ...

ورن الجرس ، ثم ارتفعت الستارة ، وضج المسرح بالتصفيق فانحنت فى رشاقة وخفة وهى تكشف عن ساق ممتلئة مصقولة كأنما يجرى فيها شعاع الشمس ، ونثرت ابتساماتها يمنة ويسرة ترد تحية بتحية ...

ولم يكفّ التصفيق حتى ارتفع صوتها يغنى ... واستدار بها البنات يرقصن ويغنين ...

وغنّتْ ورقصت ، وضحكت وبكت ، وتأمّرتْ ثم ذلّت ، واستعطفتْ ثم دلّتْ ، ووعدتْ ثم تأبّتْ ، ومنعتْ ثم نوّلتْ ، وقالت عيناها ... وقالت عيونُ الناس ...

وكأنى لم أر قدرية قبل تلك الليلة ؛ ... لقد بدا لى من جمالها وخفتها ما لم يكن لى به عهد من قبل ؛ أهذه هى ... ؟

ولما أُسدِلت الستارة فى الخاتمة، كان تحت قدميها أكداس من الزهر ؛ وفى أذنيها أنغام من هتاف الإعجاب ؛ ولكن قلبها كان أحفلَ بمعانيه ... !

وحين لقيها أبوها بعد ، كانت فى عينيه دموع ، وطبع على جبينها قبلة ... وأقلّتْها السيارة بين أمها وأبيها إلى البيت وهى صامتة ، لأن معانى ذات خطرٍ كانت تُطيف برأسها ...

ونامت تلك الليلة بين هتاف وتصفيق وأكداس من الزهر : لقد كانت عيناها مغمضتين ولكن قلبها يقظان ؛ وتمثل لها فى أحلامها كلُّ ما رأت وسمعت وشعرتْ ، وراحت أحلامها تنسج لها أمانيها ... وتلقّت الدرسَ الأول فى تلك الليلة ، فنسيت به كل ما تعلمت من دروس !

* * *

لقد ذاقتْ قدريةُ من اللذة الفنية ليلتئذٍ ما لم تذق طوال سنيها التى عاشت ، فشاقها أن تستزيد ...

ولما عادت إلى المدرسة بعد يومين ، وسمعتْ ثناء معلّميها ومعلماتها ، أجدّ لها ما سمعتْ معانىَ أحست فى أعماقها صداها ووجدت فيها غذاء لأمانيها ...

... وتناولت ( المجلةَ ) التى تعودتْ أن تقرأها فى كل أسبوع ، فراحت تعبر صفحاتها مُعجلة حتى انتهت إلى صفحة ( الفن ) فتلبثتْ ، وأخذت تنظر إلى صور الراقصات ونجوم المسرح معجبة متمنية ... وفى أذنها صدًى بعيد من هتاف النظّارة وتصفيق المتفرجين ... !

ولما حان عيد مولدها وأرادت أن تتصوّر — على عادتها فى كل سنة — لم يحلُ لها إلا وضعٌ واحد تبدو فيه صورتُها ، فلبستْ ثوبها الذى كانت ترتديه ليلتئذ ووقفت بعضَ مواقفها واستحضرتْ صورةَ ما كان ... فانطبعت فى الورقة صورةٌ من مشاهد ذلك الماضى ، وتمثلتْ فى نظرة عينيها تمامُ صورته !

ووقفتْ ذات مساء على باب مسرح كبير من مسارح اللهو تجيل عينيها فى إطار كبير يضم شتيتاً من صور الراقصات وربات

الفن ، وطالت وقفتها ؛ ثم انصرفت ؛ وفى الليلة التالية كانت جالسة فى الصف الأول من بهو المسرح تشهد التمثيل وحدها ، ليس معها أحد من ذويها ؛ واستطاعت فى ختام الليلة أن يكون لها رأى فيما شهدت من ألوان الفن وفى عيوب الممثلين وغلط الراقصات . . . !

وفى الصباح كانت جالسة إلى بعض زميلاتها فى حوش المدرسة تحدثهن حديثاً طويلاً عن عيوب الفن المصرى فى الرقص والتمثيل والغناء ، وتشخّص العلة وتصف الدواء ؛ وأمّن صديقاتها على ما قالت ؛ فما تشك واحدة منهن فى أن من حق قدرية أن يكون لها رأى فى الرقص والتمثيل والغناء ؛ وإنهن ليسمعن من حديثها كل يوم ما يشهد بكفايتها وسعة معارفها فى تلك الفنون ... !

وتلقت قدرية بعد الدرس الأول دروساً كثيرة ، فى المسرح والسيما ، والصحف ، والكتب ؛ وما نسيت مع كل أولئك شيئاً مما رأت فى تلك الليلة التى كانت . . . لقد استقرت فى أعماقها أصداء الهتاف والتصفيق الذى سمعت ليلتئذ ... ورنين كلمات الإعجاب والرضا التى وعتها أذناها ، وصورتها بين الأشعة الملونة تنسكب عليها من جوانب المسرح وتحت قدميها أكداس الزهر ... وبقى كل أولئك فى نفسها مشهداً حياً كأنها ما تزال بين أشعته وألوانه، فإنها لتجد لتذكُّره لذة فنية تحبب إليها حياتها وتجدد لها فى كل يوم أمانيها ...

* * *

وانتهى عهدى بقدرية وانتهى عهدها بى ؛ فقد أتمت دروسها بالمدرسة ومضت لشأنها ؛ وتصرمت سنون ... ونسيت أمرها وما كان ...

... وفى ليلة من ليالى الصيف الماضى ، دعوت أهلى إلى سهرة فى بعض ملاهى الإسكندرية ؛ قصدَ التسلية والرياضة . ووقفتُ بباب الملهى العائم بين الأمواج المصطخبة ، أقرأ البرنامج المنشور على الباب وأشاهد الصور ؛ ورأيت صورة ، فهجس فى نفسى هاجس لم يلبث أن تلاشى ...

ودخلنا ، واتخذنا مقاعدنا على مقربة من المسرح ... ومضت لحظات ، ثم رن الجرس ورفعت الستارة ؛ وتتابعت المشاهد فنوناً توقظ الفكر وتجلو صدأ النفس وتُسرى عن المهموم ؛ وفجأة برز أمامى مشهد رائع ... يا لله ... ! من كان يظن ... ؟ هذه تلميذتى قدرية ... !

وبدت لى فى مثل هيئتها التى رأيتُ أول مرة على المسرح الكبير فى القاهرة منذ سنوات ...

ثوب منفوش ، كأنما اجتمعت أجزاؤه من أوراق الزهر ، يكشف عن ساق ممتلئة مصقولة، كأنما يجرى فيها شعاع الشمس، وانحنت فى رشاقة وخفة ، وهى تنثر ابتساماتها يمنة ويسرة ، ترد تحية بتحية ، والمسرح يضج بالتصفيق والهتاف باسمها الجديد الذى سمعتُه لأول مرة فى تلك الليلة ...

وغنت ورقصت ، وضحكت وبكت ، وتأمرت ثم ذلت ، واستعطفت ثم دلت ، ووعدت ثم تأبت ، ومنعت ثم نولت ... وقالت عيناها ... وقالت عيون الناس ... وقالت لى نفسى ...

وانتثرت أكداس الزهر على قدميها، وأسدلت الستارة...!

ليت شعرى ، هل كانت قدرية فى أولياتها تتوقع هذه النهاية التى انتهى إليها أمرُها ؟

وهل كانت خواطرها تخيّل لها هذا المصير الذى بلغته ، يوم كانت تجلس مجلسها من الصف الأخير فى حجرة الدراسة ؟

وهل ... وهل عَرف من عَرَف : كم بين الدرس الأول والدرس الأخير ... وأين ما بدأ مما انتهى ... ؟

* * *

وانفض السامر ، وتهيأ أهلى للانصراف وما زلت فى مجلسى أفكر، ثم نهضت؛ فإنى لأتلمس طريقى فى الزحام على الباب إذ حانت منى التفاتة فرأيت ؛ فتنحيت عن طريق ، وقلت للتى بجانبى : تفضلى! وكانت سيدة ورجلها وبينهما طفل؛ أما السيدة فأعرفها ؛ فما تخفى علىّ ملامح تلميذة من تلميذاتى مهما باعد بيننا الزمان؛ وأما الرجل فزوجها؛ هكذا يعرف كل من يراه ويراها ؛ وأما الطفل...

... هذه فتاة أخرى من تلميذاتى تبرز لعينىّ فجأة بعد غياب سنين ... هذه واحدة و ( تلك ) واحدة ...

ليت ( تلك ) التى توارت خلف الستارة منذ قريب قد رأت ما رأيتُ لعلها تعلم ماذا باعت وما اشترتْ !

وشيعتُ (الأسرة السعيدة) بعينىّ ثم ارتد نظرى إلى الوراء لأشيّع الأخرى ...

وكأنما اجتمعت لى هاتان الصورتان فى زمان ومكان ليشغلنى أمرهما من بعدُ ما يشغلنى ، فلا أزال أسأل نفسى كلما حضرتنى الذكرى : أيهما خير . . . ؟

محمد سعيد العريان